لن أخونَ تاريخي

الأستاذة المناضلة رجاء بشارة

rajaa.bechara@gmail.com

هذه العبارة قالتها انطوانيت بشارة (أم وليد عبود)، والدة الشهداء نقولا، لولا ود. فؤاد عبود زوجة الصحافي المرحوم الياس عبود، في مقابلة أجرتها معها جريدة الأخبار بتاريخ 27/05/2011. عبارة تعبر عن تاريخ استثنائي لامرأة استثنائية يصعب جمعه بمقالة إذ يحتاج إلى صفحات وصفحات، لذا سوف نقوم بسرد بعض من هذا التاريخ علنا نستطيع يوما أن نسرده كله في كتاب أو في فيلم وثائقي حتى نفيها حقها، ويكون مادة بحثية للأجيال القادمة.

ولدت انطوانيت بشارة سنة 1930 م. في قرية ديرميماس الجنوبية الحدودية، وهي البنت الوحيدة لثلاث إخوة شباب. منذ نشأتها تميزت بالشخصية الجريئة والقوية مقارنة مع أقرانها، ولمن يعرف والدها ووالدتها لا يتوقع غير ذلك. فوالدها كان عمله الأساسي قصاب حجارة عمّار، وكان مثقفا واعيا ومحللا لما يدور حوله إذ لم يكن يترك ورقة أو كتاب في حينها دون أن يقرأه متابعاً للأوضاع السياسية ولقد مارس مهنة «مجبر عربي» إذ تعلمها وطورها بتبادل الخبرة مع صديق له من قرية يحمر الشقيف، كما معظم المجبرين آنذاك الذين تعلموا المهنة من المواشي وخاصة الماعز، حيث قام بمعالجة كثيرين من أهل القرية ومن قرى جبل عامل. وجدير بالذكر أنه لم يتقاض يوما قرشا واحداً من عمله كمجبرعربي؛ كذلك صديقه. أما والدتها التي كانت أيضا تشارك الأب في الثقافة فقد تميزت في القرية بأنها في حال تعذر وجود الداية أو تأخر حضورها تقوم

بالمساعدة والعون. وللذكر فإن ثلاثة من أحفادها ولدوا على يديها، وكما الأب فإنها لم تتقاض قرشاً واحدا مقابل هذا العمل. بين هذين الأبوين ومع ثلاثة إخوة شباب ترعرت وتابعت تعليمها حتى الصف الخامس (certificat). وتحملت مسؤولية باكراً مع أهلها حيث إنها بالإضافة لمساعدة والدتها، كانت تقوم بأعمال الزراعة والفلاحة حين يكون لوالدها وإخوتها عمل في تقصيب الحجر إذ كانت تذهب ليلاً لسقاية الزرع والأشجار. والمعروف أنه لم يجرؤ أحد على التعدي على دورها في السقاية. ولا تنسى ذهابها مع الفلاحين من القرية والقرى المجاورة إلى فلسطين تحديداً الى سوق مدينة الخالصة التي تعرف اليوم بـ» مستعمرة كريات شمونة». وفي سنة 1948 ذهبت مع عمتها التي كانت تعلم في المدارس الكاثوليكية بفلسطين. وعملت في التعليم حتى شهر نيسان، حيث عادت في فترة عيد الفصح إلى قريتها ولم تستطع العودة بسبب وقوع نكبة فلسطين. أما على المستوى العائلي، فكان استشهاد أخيها الصغير العريف بالجيش اللبناني الشهيد نكد جرجس بشارة سنة 1958.

أما عن تاريخها النضالي، فقد انتسبت إلى صفوف الحزب الشيوعي في سن مبكرة، وقد سبقها إلى ذلك أخواها اللذان يكبرانها وأبناء عمومها، مدعومة من والدها. وسوف نذكر بعضا من نشاطها في هذه المرحلة، مثل انتقالها سيراً على الأقدام بين القرى والمنازل، للتحضير للقاءات تثقيفية، أو لنقل المنشورات والمطبوعات الحزبية المحظورة، والتحريض ضد الطبقة الإقطاعية، ونشاطها ونشرها للوعي وخاصة بين النساء ونشر الوعي حول قضية فلسطين؛ يذكر أن أحمد الأسعد الإقطاعي في المنطقة في ذلك الوقت حرض على قتلها عندما بدأت حركتها تشكل إزعاج له. ولا ننسى أن نذكر أن أنشطة الحزب الشيوعي كانت محظورة. أيضا، شاركت في نقل المطبوعات إلى الحزب الشيوعي في سوريا. كما شاركت في المظاهرات التي دعا إليها الحزب الشيوعي آنذاك في كثير من المناطق اللبنانية، في بيروت، في طرابلس وصيدا. ونتيجة لذلك اعتقلت عدة مرات، ومنها مرة في طرابلس لمشاركتها في تظاهرة، حيث أوقفت ثلاثة أشهر. وحتى في السجن حيث قامت بأنشطة للتثقيف ومحو الأمية. وهنا ايضا حادثة تذكرها انطوانيت بفخر أنه عندما علم والدها بخبر اعتقالها قالوا إن هذا نتيجة تشجيعك لها والسماح لها فأجابهم: «عندما تخرج سوف أشتري لها بارودة».

خلال مسيرتها النضالية تعرفت إلى رفيق دربها الرفيق الصحافي الياس عبود، وتزوجا، وبدأت مرحلة جديدة من حياتها النضالية. إذ لم يكن من السهل أن تكون زوجة

صحافي ملتزم عمل فترة لا بأس بها بالخارج خاصة في العراق والكويت. سوف أفتح هلالين لأذكر ملف تحقيق صحافي أجراه في سنة 1974 عن نهر الليطاني، ونشر في جريدة السفير تحت عنوان نهر المليون فقير؛ تحقيق يستشرف فيه الكثير من المستقبل. وبالعودة إلى مسيرة المناضلة، فإنها تحملت المسؤولية الكاملة في إدارة البيت وتربية أولادها الستة، وزرعت فيهم روح الوطنية وروح المقاومة ضد العدو الإسرائيلي والاعتزاز بمسيرتها ومسيرة الوالد النضالية.

مع بداية الحرب الأهلية في العام 1975 تعرضت للتهجير وترك منزلها مع أولادها الستة دون أن تأخذ منه شيئاً من منطقة فرن الشباك كما كان يعرف آنذاك بمنطقة بيروت الشرقية. كانت من العائلات الأولى التي هجرت من بيوتها، والسبب الاختلاف السياسي مع الميليشيا المسيطرة على المنطقة وقتها. وانتقلت للعيش في قرية زوجها القرعون وبدأت مرحلة جديدة من حياتها، ومع هذا لم تحد قيد نملة عن مبادئها الوطنية والسياسية.

في القرعون، وفي هذه المرحلة، فعلت نشاطها الاجتماعي النضالي إذ كانت تقول إننا في حرب أهلية لا نعلم متى نهايتها، ومع وجود العدو الإسرائيلي على الحدود يجب توحيد الصفوف والجهود. كانت تقوم مع نساء القرعون بتنظيم شؤون الحياة على صعيد العائلة، وعلى صعيد القرية، وساهمت مع أهل القرية في تأسيس مستوصف من أنشطته إقامة دورات إسعافات أولية للفتيات....

بعد 18 عاما، أي في سنة 1976، عاد الزمن، وفتح جرحها الموجع باستشهاد ولدها نقولا عبود على تلال جبل صنين بين صفوف حركة فتح بمعركة الدفاع عن عروبة لبنان وحق لبنان في التصدي للعدو الإسرائيلي. هذا الوجع لم يثنها عن واجبها تجاه أهلها وناسها ولم يبدل موقفها تجاه القضية الأساس.

بعد سنة، في العام 1978، احتل العدو الصهيوني ما يعرف بالشريط الحدودي، فتأكد ما كانت تحكيه وهو دخول إسرائيل على مسار الحرب الأهلية اللبنانية. وفتح جرح العائلة من جديد باستشهاد ابن أخيها خالد عساف بشارة بالجنوب في صفوف حركة مقاومةٍ ضد العدو الإسرائيلي.

ومن جرح إلى جرح، كانت هذه المرأة المناضلة تزداد صلابة وعنفوانا وتمسكا بخطها

النضالي، الذي تمثل في دعم المقاومتين الفلسطينية واللبنانية ضد العدو الإسرائيلي.

ومن الأمثلة، أنها قامت بتنظيم زيارات مع نساء من المنطقة لقواعد الفدائيين في الجنوب لرفع المعنويات والتعبير عن التضامن مع الخط المقاوم. من مآثرها أيضا في اجتياح 1982 أنها قامت مع مجموعة نساء بإدارة المستوصف الميداني الذي أنشئ في البقاع وتجهيز مطبخ ميداني لتحضير طعام للفدائيين ودعم صمودهم.

وعندما وقعت القرعون تحت الاحتلال واضطرت للانتقال للعيش في بيروت في شقة الصغيرة، دخلت مرحلة جديدة لكن كل هذا لم يكسرها أو يشعرها بالوهن. وبالرغم من صغر الشقة فقد كانت مفتوحة على مصراعيها للاستقبال، وخاصة استقبال أهالي القرعون. ولم تكن تقصر في تقديم أية مساعدة إن استطاعت ولم تكن توفر أية وسيلة، حتى إنها كانت عند تحرير أسرى معتقل بلدة أنصار الجنوبية، المعتقل الذي بناه العدو خلال حرب 1982 على لبنان ووصل عدد المعتقلين فيه لأكثر من خمسة آلاف معتقل، تذهب لمنطقة الروشة في بيروت حيث وصول باصات المحررين لاستقبالهم، وتبدأ بمناداة شباب القرعون إن وجد أحد منهم وتحضرهم معها للبيت وتقوم بالاتّصال بأهلهم بالقرعون وتطمئنهم وتؤمن لهم مواصلات حيث يريدون العودة.

ويعود القدر ويفتح في قلبها جرحاً قديماً ويجدده في شهر نيسان 1985 بإعلان استشهاد ابنتها المقاومة في جبهة المقاومة الوطنية الشهيدة لولا الياس عبود، في عملية نوعية في القرعون. عشية استشهاد لولا، انسحب جنود العدو من القرعون... وتحررت القرعون وشيعت الشهيدة في قريتها، وكانت الوالدة على مستوى الحدث بل و أعظم. كان الجرح كبيرا جدا، إذ كانت لولا ابنتها الصغرى وكانت لا تزال تجلسها أمامها وتقوم بتجديل شعرها.

لكن الرسالة التي تركتها لها الشهيدة كانت تدل على أنها تخطت عمرها بالوعي أكثر، ومما ذكرته لوالدتها في الرسالة «أن هذا ما تربت عليه؛ حب الأرض وحب الوطن، ولن تقبل أو ترضى بالاحتلال وأن مقاومته واجب وأنك، أي والدتها، هي النموذج».

وبعد استشهاد لولا ووفاة زوجها ورفيق دربها سنة 1988، أخذت قرارها بالعودة والسكن في القرعون، وتابعت حياتها بنفس النشاط الاجتماعي. كانت لولا طريقنا للانتصارعلى الاحتلال حتى التحرير. حتى إنه من كثرة نشاطها ودعمها للصغار والكبار خاصة بين

جيرانها، أصبح معظم أطفال الحارة ينادونها (ستي أم وليد)، وحتى يومنا هذا، إن وقفت عند مدخل القرعون وسألت عن بيتها تجد عشرات المتبرعين يدلّونك عليه.

في هذا الفترة عاد معها إلى القرعون ابنها د.فؤاد الذي كان أنهى دراسته في الطب العام واختصاصه في الجراحة العامة. هذا الطبيب كان متميزا في مهنته واختصاصه وإنسانيته، واشتهر في القرعون وحتى البقاع لكثرة خدماته الإنسانية التي لا تعد ولا تحصى. كيف لا وهو ابن هذه السيدة العظيمة التي لم تخن تاريخها يوما تحت أي مسمى. ولكن القدر أبى إلا أن يفتح جرحها ويسبب لها أوجاعا لو حملت على جبل لإنهار، ففي العام 2016 فقدت ابنها الطبيب طبيبَ الفقراء، فكانت ضربة قاسية وموجعة حتى العظم.

مرحلة جديدة بدأت، فقد انكفأت الى حد ما عن الحياة الاجتماعية وجلست في منزلها تحمل على كتفيها: القهر والوجع والشوق لأحبة سكنوا قلبها. مع هذا بقي بيتها مفتوحاً مرحباً بكل زائرٍ محبٍ وبقيت صامدة صابرة متمسكة بشعارها « لن أخون تاريخي»، وموقفها بقيَ الداعمَ لأي عمل يضعف العدو الإسرائيلي.

سيدتي... أعلم أن هذه المقالة لن تفيك حقك فمسيرتك ونضالك يحتاجان إلى كتب لشرحهما والحديث عنهما. فتاريخك أمانة بأعناق كل الشرفاء، وآمل أن يطيل الله بعمرك حتى تشاهدي وتزوري فلسطين المحررة والحرّة. ووعداً منا «لن نخون تاريخك».